# الأدب وفكرة التسليع: دراسة في المفهوم والدلالات

# Literature and commodification: a study of the concept and connotations

سهيلة بريوة*

[1] جامعة محمّد الصديق بن يحيى-جيجل- (الجزائر)

**الملخص:**

يبحث هذا المقال في مفهوم الأدب الاستهلاكي، فقد تسحب هذا اللون الأدبي على الذوق العام وانتشر وسيطر، مضيقا من مجال الأدب النخبوي خانقا لمجال التلقي والنقد، وعليه فإن البحث في علاقة الأدب بالتسليع من منظور حداثي بات ضرورة ملحة لإعادة الأمور إلى نصابها، ولترتيب هذه الفوضى التي طالت استخداماته.

وانطلاقا من هذا سوف نحاول تفكيك مظاهر التسليع الثاوية والظاهرة في النص الأدبي ، وقد اخترنا مجموعة من الروايات المنتشرة بين القراء ، والمكرسة تجاريا وإعلاميا ، لمحاولة تعرية حيل الترويج على مستوى الشكل والمضمون

تبعا لهذا سوف نجيب عن هذه الأسئلة: ما هو مفهوم التسليع في الأدب؟ ما هو مفهوم الأدب المسلع . ما هي مظاهر السلعنة في الأدب ؟ وما هي آليات التسليع الظاهرة والثاوية، في النص، والكامنة في النصوص والخارجة عنها؟

**الكلمات المفتاحية:** تسليع الأدب ، صناعة الأدب ، صناعة الثقافة ، الأدب الرسمي ، الأدب الجماهيري

**Abstract:** This article examines the concept of consumer literature, as this literary color has affected public taste, spread and dominated, narrowing the field of elite literature and suffocating the field of reception and criticism. Therefore, research into the relationship of literature to commodification from a modern perspective has become an urgent necessity to put things back in order, and to put these matters in order. The chaos that affected its uses.

Based on this, we will try to dismantle the secondary and visible of commodification s manifestation in literary texts. We have chosen a group of novels widespread among readers, and devoted commercially and in the media, to try to expose promotional tricks at the level of form and content.

Accordingly, we will answer these questions: What is the concept of commodification in literature? What is the concept of commodified literature? What are the manifestations of commodification in literature? What are the mechanisms of commodification, apparent and hidden, in the text, and latent in the texts and outside of them?

**Keywords:** literature, marginal literature, consumer literature, literature for the masses

* **سهيلة بريوة.**

**مقدّمة**

يقتضي البحث في ماهية العلاقة بين الأدب والتسليع، التقهقر بعيدا إلى تبين الوظيفة ، التي أنيطت بالأدب منذ بداية تشكل الوعي البشري. والإجابة عن السؤال: لماذا أبدع الإنسان الأدب ؟ هل كان هدفه التسلية وتزجية الوقت أم جعل الأدب مجرد قوالب لأفكاره ،وقوانينه ورؤاه الأسطورية ، ...إلخ

وهي علاقة شائكة أيضا لا يمكن فصل خيوطها الرفيعة .لأن مكانة الأدب في المجتمع، قد عرفت تحولاتها المستمرة، فإن كان الأدب في رأي Robert Escarpit"روبير إسكاربيت" قديما "لا يصنع بل يولد مع الذات ... وعلى هذا الأساس تحول الأدب في شكله وقوالبه ، تبعا لتحول أهدافه ووظائفه.

ارتبط مفهوم صناعة الثقافة ب "تيودور أدورنو" Theodore Adornoومدرسة فرانكفورت ،التي انتبهت مبكرا إلى تأثير الوعي الرأسمالي ، في تأسيس خطاب ثقافي مغاير ، قوضت فيه الثقافة النخبوية ، لصالح ثقافة جماهيرية . فصل أدورنو في نقد هذه الصناعة الثقافية المغايرة ، وشرح في مؤلفاته بداية من "جدل التنوير"الذي نشره بمعية ماكسهور كهايمر MaxHorkeimer . كيف تسحبت هذه الثقافة، وأسهمت في تمييع النخبوي لصالح الجماهيري.

## 1 . تسليع الأدب وجينيالوجيا المصطلح :

ترتبط لفظة التسليع في اللغة العربية بالمقابل الكمي ، فتسليع شيء ما هو تحويله إلى بضاعة تعرض بغرض الاتجار والربح، وقد ورد في لسان العرب " وهما سِلعان وسلعان، أي مثلان . قال رجل من العرب: ذهبت إبلي. فقال رجل: لك عندي أسلاعها، أي أمثالها " (منظور)، أي ما يشبهها ولا يطابقها. وبهذا يرتبط مفهوم السلعة بالمقابل المادي، وبالمشابهة في الكم والنوع.

وإذا ربطنا مفهوم السلعة بالأدب، فنحن هنا، نؤلف بين شيئين متباعدين، إذ يفترض بالأدب أن يكون غذاء للروح والعقل، وربطه بالسلعة هو مما ينقص من قيمته. لكنه يعد المصطلح الأقرب لتوصيف هذه الظاهرة ،التي استفحلت في وقتنا الراهن، فقد صار الأدب سلعة تعرض وتباع ويروج لها ، بعيدا عن قيمته الجمالية والفكرية ،وهو ما تعرضت له ضمنا فلسفة مدرسة فرانكفورت في طرحها لمفهوم صناعة الثقافة، وكذلك ما ذهب إليه روبير إسكاربيت في كتابه الهام سوسيولوجيا الأدب كما أسلفنا، وعلى هذا الأساس، نستخدم مصطلح التسليع، لكشف الحيل الإبداعية، التي يعمد المؤلف، إليها لتمرير أدبه جماهيريا بعيدا عن القيمة الجمالية والإبداعية للنص الأدبي، إن كان ذلك على مستوى الكتابة (داخل النص)، أو على مستوى الشكل خارج النص، لكنه يرتبط به وبطريقة تصريفه .كأن يختار المؤلف مثلا الكتابة بلغة رائجة مثلما هو الحال عند الكتاب الفرانكفونيين، على رأسهم "ياسمينة خضرا"، "رشيد بوجدرة" "الطاهر بن جلون" ، "أمين الزاوي "، وجل هؤلاء الكتاب اختاروا اللغة الفرنسية طمعا في الرواج ، بكل ما تحمله هذه اللغة من

مقدرة على الانتشار ، ولا أدل على ذلك من غير كتابات "ياسمينة خضرا "الذي حقق نجومية أدبية،لم يكن ليصلها لولا كتابته باللغة الفرنسية، ونعي جيدا أن هذا الرواج ،لا ينبع من إجادة أدبية، ورقي جمالي، وإنما هي سياسات موجهة،أقرتها دور النشر التجارية، التي جعلت من مضامين الإرهاب والعشرية السوداء، مثلا في فتر ة من الفترات، هي معيار النشر والانتشار .

ولا يفوتنا في هذا السياق الإشارة إلى الكاتبة الجزائرية " سارة ريفانس" التي فاقت مبيعات روايتها "الرهينة " ملايين النسخ، وترجمت إلى لغات عديدة ، في مدة زمنية قصيرة ، وهي كاتبة شابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين من العمر،وقد نشرت روايتها عبر تطبيق الواتباد" في شكل سلسلة حكايا ،الشيء الملفت في هذه التجربة الإبداعية ،أن هذه الكاتبة اختارت وسيلة رقمية عالمية وسريعة الانتشار ، كما اختارت لونا أدبيا رائجا وهو" الدارك رومانس"، أو الرومنسية السوداء، التي تحتفي بعالم المافيا ، وخباياه ،واختارت لها كنية غربية، بعيدا عن هويتها العربية، كما أن شخصيات روايتها مستوحاة من مجتمعات غربية. وقد استخدمت تقنية التشويق وأجادت في الوصف وجذب القارئ الغربي، باختيارها الكتابة باللغة الفرنسية بدلا من لغتها العربية.

وبالتالي فهؤلاء الكتاب المنتشرين عالميا، قد اختاروا سبيلا مربحا مكسبا للانتشار، بتضحيتهم أولا باللغة التي ينتمون إليها، وباختيارهم لمواضيع رائجة مطلوبة، وبلعبهم على وتر الذوق الأدبي المهيمن، وبخاصة عند القاري الغربي، لذلك لطالما تكررت في كتابات الفرانكوفونيين، ظاهرة الشرقنة، ووصف عوالم الحريم والحمامات ويبرز هذا النمط من الكتابة في روايات آسيا جبار، مليكة مقدم، الطاهر بن جلون ...الخ. وعليه وجب تفكيك ظاهرة **السلعنة** في كتابات الأدباء العرب الذين يكتبون بلغات أخرى، كوسيلة للانتشار ولحصد المقروئية والجوائز ، وبطبيعة الحال توجد حالات لم تقع في فخ التسليع، على غرار كتابات جبران خليل جبران مثلا.

اشتغل روبير اسكاربيت في كتابه الهام سوسيولوجيا الأدب، على تفكيك علاقة السوسيولوجيا والمجتمع بالإنتاج الأدبي، وكيف يتوافق الأدب مع ذوق الجماهير ويعبر عن متطلباتها، وقد فكك بعمق هذه العلاقة وانتبه إلى دور الجوائز والمؤسسات في تكريس هذا الأدب الجماهيري . ظهر هذا الكتاب سنة 1958. يتضح جليا تأثير مدرسة فرانكفورت على الكاتب ، الذي أجاد في تفكيك وتحليل اشتغال الجانب البراغماتي والاقتصادي في صناعة الأدب والترويج له، ويعد هذا الكتاب مرجعا أساسا إذا ما تعلق الأمر بآليات التسليع خارج النص ، وما يتعلق منعا بدور النشر وطرق التوزيع وتأثير وسائل الإعلام بمختلف أشكالها .

يعدّ مصطلح تسليع الأدب مصطلحا حديثا ، وقد تمت الإشارة إليه عند نقاد كثر في معرض حديثهم عن ثقافة الجماهير، ودورها في هيمنة الآداب الهامشية، إذ نجد مقالا مهما لمارك انجينو Marc Angenot كان قد نشره سنة 1974بعنوان ما هو الأدب الهامشي:

qu' est ce que la paralittérature (Marc, http//doi.org/10.720.150035ar).

كما استخدم Bernard Moralis برنارد موراليس مصطلح الآداب المضادة ،في كتابه الآداب المضادة Les contre_ littéraires الذي نشره سنة 1975 ."(Mouralis, 1975, p. 60) وتحدث فيه عن قطاع مهم من الآداب الهامشية، التي أضحت مكرسة تجاريا وثقافيا ، بفعل هيمنة المؤسسة الرأسمالية.

**2.كرونولوجيا التسليع في الأدب:**

يعدّ ارتباط الأدب بمفهوم التكسب، والاتجار والجانب المادي الربحي، ظاهرة قديمة ، فقد استخدم الأدب كوسيلة لتمرير الوعي الديني، وكان هنالك تظافر بين الأدب والأسطورة، بخلفيتها الدينية الهادفة للتأثير والبقاء، وإذا سلمنا بأن الملاحم هي أقدم الألوان الأدبية في تاريخ البشرية، سنجد البراغماتية المادية حاضرة ومهيمنة، فقد كانت الملاحم تنشد بمرافقة معزوفات موسيقية في الأسواق العامة، وتعرض تلك الحكايا عن أمجاد وبطولات الأسلاف مثلها مثل أية بضاعة، يجازى المجيد في سردها نقودا وشهرة . ومنه فهذا الجانب التكسبي من الأدب موجود ومعروف، ناهيك عن خيال الظل، والحكواتي ..... وجميع أشكال التسلية والترفيه المعروفة عند كل شعوب العالم.

وإذا عدنا إلى الأدب العربي، فقد عرف عن الشعراء العرب تكسبهم بالشعر يقول ابن رشيق القيرواني " حتى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته، أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيما، حتى كان أكله وشربه، في صحاف الذهب والفضة و أوانيه من عطاء الملوك. " (القيرواني، 1972، صفحة 80).

وكان المديح في الشعر العربي مرتبطا عند كثير من الشعراء القدامى بمن يجزل العطاء ، بعيدا عن صدق المدح وجدواه ، ناهيك عن بعض الشعراء الذين استخدموا الشعر نقدا لاذعا بالقدح والذم لمن منع عنهم ماله على غرار الأعشى، ويزخر أدبنا العربي بألوان جمة من تحولات الشعر إلى صنعة وسلعة تجازى مقاديرها بالذهب والفضة .وبخاصة في العصر العباسي، فقد أدى تطور المجتمع الإسلامي وانفتاحه على بقية الشعوب، أدى إلى تفشي مظاهر اجتماعية،أحالت صنعة الأدب إلى سبيل من سبل الاسترزاق عند بعضهم، مثلما يؤكد ياسر عبد العزيز الحوراني الذي فكك ظاهرة التكسب في الشعر العربي قديما من منظور اقتصادي:"إنّ الشعر من أجل التكسب في مثل هذه الظروف، أشبه بعمليات التبادل عن طريق السلب والنهب والكدية والتسول، ولكن دون شك أن دوافع الارتزاق بكل الوسائل الممكنة، لا يخلق

شعراء غير عاديين كفحول وجهابذة الشعر، وإنما يتم تداول الشعر عبر طبقة كبيرة من المجتمع لان الهدف هو الحصول على المال ولو كان قليلا ليس أكثر " (الحوراني، دس، صفحة 26).

وفي العصر الحديث ومنذ ابتكار الطباعة، لعب الأدب دوره البارز في التحول إلى بضاعة مربحة، وقد وجدت الصحافة في القصص والروايات مادة دسمة لجذب القراء، على غرار مجلة الهلال في الأدب العربي التي اعتمدت الروايات المتسلسلة لتحقيق مبيعات أكبر وكان «جورجي زيدان » هو مؤسس هذه المجلة وكاتبها الرئيسي، بسلسلة رواياته التاريخية. وانطلاقا من هذا يمكننا أن نفهم جيدا، لماذا انتقد فن الرواية في الأدب العربي أوان ظهوره، فقد كانت جنسا مبتذلا، مما حدى بحسين هيكل أن يتخفى تحت اسم مستعار حينما نشر رواية زينب، جنس مبتذل على مستوى السرد المسترسل، وعلى مستوى الهدف والبنية، وقد ارتبط ظهوره في الأدب العربي بالتسليع بالدرجة الأولى للمجلات والصحف.

وإذا عدنا إلى تاريخ الأدب الغربي عموما، نجد أن التحولات الكبرى،التي طغت على نظرية الأدب، قد بدأت في التسحب اثر انتشار التيارات العبثية، التي ظهرت منذ الحرب العالمية الأولى. فظهور كل من الدادية والسريالية وبعدهما الوجودية، قد خلخل كثيرا من قيم المؤسسة، بل قوض مركزية القيم والنظم، في مقابل إعلاء شأن الإنسان والفرد والعبث واللا قانون واللا نظام، وفقا لتلك التغيرات الحاصلة، أعلن موت الإله ومعه موت المرجع، وتقوض عالم المثل، الذي خلقه أفلاطون قديما، وانبجس علم الذات والإنسان، الذي يخلق وجوده ومصيره، وقد أعقب قتل الاله قتل المؤلف وميلاد القارئ، خالقا جديدا، وهو قارئ تتفاوت مستويات وعيه، ووجوده .

**3 . آليات تسليع الأدب :**

تحدث سعيد يقطين في كتابه: الأدب والمؤسسة والسلطة : نحو ممارسة أدبية جديدة . عن صنعة النص الأدبي،وتطرق إلى دور المؤسسات في فرض نصوص معينة (يقطين، 2002، الصفحات 88-93)، وركز في حديثه على النصوص التراثية، ودور المحققين في توجيه ذوق المتلقي.أكد سعيد يقطين على دور المؤسسات في إعادة صقل ذوق الجماهير لإعادة إحياء الذوق الأدبي الراقي،وقد انطلق في قوله مما لاحظه من تفكك لمنظومة الفكر الربيب سبب تسحب الابتذال والضحالة .

لقد انطلقت من منظور سعيد يقطين لأبين الفرق بين صناعة الأدب أو صنعة النصوص، وبين صناعة الثقافة وبين مصطلح تسليع الأدب، الذي يركز على التقنيات المحيطة بالنص، والتي تحوله من عمل إبداعي جمالي إلى سلعة.

وعلى هذا الأساس يتركز مفهوم التسليع على نواحي شكلية وأخرى مضمونية. وتتواجد هذه الآليات خارج النص، وفي ثنايا النص أيضا.

### 4 . آليات خارج النص :

تتلخص هذه الآليات في كل العوامل المحيطة بالنص الأدبي ، والتي دفعت لإنتاجه بتلك الصورة، ونجد أن كتاب "روبير اسكاربيت" السالف الذكر ، قد فصل في طرق وشرح هذه الآليات التي تتمثل في المؤسسات بجميع أساليبها، من دور النشر التي تقر ذوقا واحدا موحدا، مما يسهم في فرض أنماط معينة، ومواضيع معينة، حاليا تعد الرواية هي الجنس الأدبي المهيمن، وهي جنس فرضته التحولات الاقتصادية والفكرية لهذا العصر .ولعب التوزيع، الجوائز الأدبية، التي تفرض أسماء معينة، وأنماطا معينة من الكتب، كل هذه الحيل لعبت دورها، في توجيه الأذواق، وصناعة نجوم الرواية والأدب،فمثلا إذا تتبعنا تاريخ ظهور الرواية في الأدب العربي، نجده مرتبطا ارتباطا كبيرا، بهذه العوامل الخارجة عن معايير الأدبية، وقد تحدث عبد المحسن طه بدر في كتابه الهام تطور الرواية العربية الحدية في مصر ، عن دور الصحف في ظهور الرواية وتكريس روايات التسلية والترفيه، إذ كان" (بدر، د س، صفحة 125) من الضروري البحث عن وسائل لاجتذاب القراء لهذه الصحف، وكان من أكثر هذه الوسائل فعالية تقديم رواية مسلسلة إلى القراء تشدهم إلى الصحيفة وتسليهم وترفه عنهم".

ومن تمّ لعب الجانب الاقتصادي دوره الحاسم في تكريس نمط من الكتابة، التي وصفها عبد المحسن طه بدر. بروايات التسلية والترفيه، التي برع فيها الشوام حينها، وقد اتهمهم في هذا الكتاب بتشويه الذوق العام.

ومن هذا، نعي جيدا أن العوامل الثقافية المحيطة بالعمل الأدبي، تحدد وجهته ونمطه، وتعتمد المؤسسات الثقافية المهيمنة، تبعا لهيمنة مؤسسات فكرية معينة، تستخدم وسائلها المادية لتكريس نمط ثقافي وأدبي معين باستخدام وسائلها في النشر والتوزيع والجوائز والمسابقات، يكون مصطلح: الأكثر مبيعا The Best Siller، هو معيار الجودة بدلا من مفاهيم الأكثر عمقا وجمالا واتقانا. وسنفهم لماذا انتشرت مؤخرا كتابات هامشية على شاكلة سلسلة هاري بوتر وما شابه، في حين تراجعت وانكمشت أعمال أخرى راقية.

### 5 . آليات داخل النص :

يشتغل مفهوم التسليع داخل النص الأدبي انطلاقا من وعي المؤلف، ورغبته في تكريس عمله والاتجار به لأجل الانتشار والنجومية، وما ينجر عنها من أرباح . ويمكننا تحديد هذه الآليات على مستوى الشكل وعلى مستوى المضمون.

### 5 . 1 آليات التسليع على مستوى الشكل:

يقتضي التنويه إلى أن استراتيجية التسليع عند الكاتب، لا تراعي عادة الجانب الشكلي، بل تعمد جاهدة لتكسير نمط الكتابة، من أجل المخالفة والتميز. فيعمد المؤلف إلى قهر الجنس الأدبي وتفكيكه وتغييره، لا لضرورة فنية

وجمالية وإبداعية، بل لأجل المغايرة والانتشار، وهو ما يسمى بالتجريب، وطبعا لا ندين في هذه الحالة جل أنماط التجريب، وإنما يكون التجريب الشكلي، الذي لا يحمل رؤية إبداعية جمالية وفكرية مجرد ترصيع وآلية من آليات التسليع والمتاجرة بالعمل .

فحينما نتناول الشعر وصيرورته في الأدب العربي، مثلا نجد أن الشكل التقليدي للقصيدة العربية، ينبئ عن رفعة الذوق وتعالى المقاصد، لكن مايعيب جماهيرية الأدب هنا ليس الارتباط بعمود الشعر وحسب، وإنما بمضامين ما ورد في القصيدة، هل تخدم رؤية فكرية معينة، مثلا .

ومنه فإنّ التجريب على مستوى الجنس والقالب ومحاولة الخرق من أجل الخرق، تعد من أبرع حيل التسليع،للرواج والاشتهار، إذ راج مؤخرا شعر الهايكو والقصيدة النثرية والقصة الومضة، والرواية المتعددة المؤلفين، وكل تلك الأمشاج الأدبية،التي يصعب تصنيفها، غايتها الأولى هي الانتشار والتأثير وتكسير قوالب المؤسسة.

ضف إلى ذلك استخدام اللغة، الذي شكل رهانا آخر من رهانات الاتجار والانتشار ، سواء باختيار لغات دارجة للبيع والترويج، وأبرز من برع في هذا الكتاب الفرانكوفونيين الذين اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية، لغرض الانتشار والمقروئية على رأسهم ياسمينة خضرا، الطاهر بن جلون فاطمة المرنيسي ألبير قصيري. لقد كتب هؤلاء بلغة ليست لغتهم،برغم اتقانهم للغتهم الأم، وجل هؤلاء كانوا يصورون في رواياتهم عوالم الشرق، وروح بلدانهم ، فقد برع ياسمينة خضرا في تفكيك ظاهرة الإرهاب في روايته بما تحلم الذئاب، م طوف يكتب في هواجس العالم العربي برمته في بقية رواياته، الموجهة أصلا لقارئ غربي، وعرفت رواياته انتشارا كبيرا وترجمت لعشرات اللغات. وهنا يحق لنا التساؤل: ماذا لو كتب ياسمينة خضرا رواياته باللغة العربية. هل كانت ستنتشر؟ طبعا تصعب الإجابة عن هذا السؤال فقد يلعب الحظ دوره أحيانا، لكن واقع الأمر يثبت أن المؤسسة التي خلقت نجومية ياسمينة خضرا لم تكن مؤسسة ثقافية بريئة ومتحيزة بل نعلم جيدا سياسات النشر التي تسيرها المؤسسات الرأسمالية التي تخلق قارئها وتنمط ذوقه وتصنع له كتابه الأوفياء الذين يكتبون على الذوق والمقاس.

ودور النشر الفرنسية تحديدا هي مؤسسات فرانكوفونية مسيسة، عملت على صناعة كتاب فرانكوفونيين يكتبون بلغتها ويكتبون أدبا على المقاس والطلب وفي المقابل تجعل منهم نجوما للأدب في فرنسا وفي بقية العالم.

### 5 . 2 آليات التسليع على مستوى المضمون :

عرف هوراس الشعر بأنه متعة أو فائدة . وفرق ضمنيا بين فائدة الشعر، ومتعته التي لا ترتبط بالمتعة، وعلى أنه لم يفصل في أمر المتعة، إلا أنها تختلف مؤكدا عن المتعة الفكرية ،لأن العقول متفاوتة في إمكانية الوصول إليها.

وعلى هذا الأساس تشتغل آليات التسليع في هذه الثنائية حينما ترتبط بمضامين الأعمال، إذ يعمد المؤلف في حيله الترويجية، إلى اختيار مضامين تتلاءم مع ذوق المتلقي ،الجماهير ، تحديدا لأنها الأوسع انتشارا ، وعلينا هنا أن نعي جيدا بان الجماهير قد حلت محل المانحين الاقتصاديين التقليديين ،فقد كان الأديب قديما تحت رعاية الملوك والسلاطين يغدقون عليهم فيجزلون العطاء والمدح . وأضحى في عصرنا تابعا للمؤسسات الرأسمالية التي نصبت الجماهير ،تابعا لذوق الجماهير وخاضعا لها .

ومن تم صار على المؤلف اختيار مواضيع ظرفية، آنية تتواكب وذوق الجماهير ، مل مواضيع الإرهاب، مواضيع الأقليات، النسوية الزنوجة، مواضيع الأحداث السياسة والتاريخية الطارئة ...حيث راجت في السنوات الماضية مواضيع الإرهاب، وكان ياسمينة خضرا والطاهر بن جلون ومحمد ساري بشير مفتي....الخ مثلا من البارعين الذين أشبعوا نهم القارئ حول مواضيع الإرهاب خصوصا في الجزائر ، حيث ظهر نمط معين من الكتابة عرف بالرواية الاستعجالية، التي أخذت على عاتقها توصيف ظاهرة الإرهاب. وسواء أن كان هؤلاء الكتاب واعين ، بهذا المنحى أم لا ،فالكثير منهم وعلى رأسهم بن جلون وياسمينة خضرا استفادوا من هذه المواضيع وكرسوا أسماءهم في عالم الأدب .تعد روايات ياسمينة خضرا: بما تحلم الذئاب A quoi rêve les loups مثالا جليا لهذا التوصيف، حيث تتبع الكاتب مسيرة بطله، الذي تحول من فنان رقيق، إلى إرهابي قاتل، في سيناريو مشوق أظهر فيه مأساوية العشرية السوداء في الجزائر ، والموضوع نفسه تكرر في رواية خرفان المولى les agneaux du seigneurحيث يبرع ياسمينة خضرا في توصيف ظاهرة الإرهاب،وإشباع نهم القارئ بتصوير بشاعة ما حدث في الجزائر ،بمشاهد أقرب إلى التسجيلية :"انفجار مروع ، رفع علال وسارة عبر فرجة الغابة ، في زوبعة من النار واللحم.أما جعفر فقد قذف بعيدا واصطدم جسده بجذع شجرة مبقور البطن بشظية .يتدحرج رجل داخل الساقية مقذوفا بنفس الانفجار. نهض مراد مصعوقا مما وقع، حوله أربعة رجال يصرخون وهم يتمرغون أرضا..." (خضرا، 2011، الصفحات 255-256)

يلعب ياسمينة خضرا في جل رواياته، على ذوق القارئ الغربي، ويعمل جاهد لاقتناص رغبته في فهم أعطاب العالم الشرقي ، يقتنصها وينسج حولها رواياته، من مثل سنونوات كابول أشباح الجحيم أو حوريات بغداد Les sirènes de Bagdad القريبة كافـ La cousine k ، l'attentât الصدمة ليلة الريس الأخيرة ... الخ.

وإن كان ياسمينة خضرا، قد ركز على مواضيع الإرهاب والتطرف الديني وماضوية المجتمع الشرقي، وبرع في إشباع نهم القارئ الغربي ،فجل الكتاب الفرانكوفونيين كما أسلفنا من قبل، برعوا في تصوير الشرق وعوالم الحريم،خاضعين لرغبة القارئ الغربي ودور النشر التي تفرض نمطا معينا من المواضيع .من مثل هذا روايات آسيا جبار: femme d Alger dans leur appartement التي تأثرت في كتابتها بلوحة أوجان دو لا كروا، وكذلك رواية لا مكان لي في بيت أبي Nulle

part dans la maison de mon père ظلت آسيا جبار وفية لتقاليد الكتاب الفرانكوفونيين في الكتابة بوعي منها أو بغير وعي، تستحضر عوالم ثقافتها العربية ، وتستحضر نوستالجيا عميقة لسنوات طفولتها وشبابها في الجزائر إذا عدنا إلى الرواية العربية عموما، وجدنا أنها بدأت في التشكل مقترنة بخاصية الاتجار والترويج كما رأينا مع عبد المحسن طه بدر ،الذي أكد أن الشوام استخدموا الرواية لبيع صحفهم.

ولا نرى أن الرواية في الوقت الراهن، قد ابتعدت عن هذا التنميط، إلا فيما ندر ، وإذا تأملنا الرواية المعاصرة مثلا، وجدناها تلعب على وتر الذوق الجماهيري، وتراهن على الانتشار من خلال تلبية تلك الأذواق على اختلافها.

فإذا تأملنا عناوين الروايات المنتشرة جماهيريا في الآونة الأخيرة من مثل روايات: أرض زيكولا 1 وأرض زيكولا 2 أماريتا وقواعد جارتين ل عمرو عبد الحميد.أو رواية "أنترخيستوس" ورواية "ملائك نصيبين"ورواية " أرض السافلين "لـ لأحمد خالد مصطفى، وكذلك عمل مطعم اللحوم البشرية وقصص أخرى لـ أحمد خالد.وإكستاسي لـ " عبد الهادي العشمان" وعمل غرباء في الليل لمجموعة من المؤلفين العرب.

نجدها مغايرة على مستوى المضمون والكتابة فهي روايات وكتابات يمكن إدراجها في نطاق الواقعية السحرية ، فهي تستخدم عوالم السحر والشعوذة والماورائيات، لتشبعنهم وخيال القارئ، وهو يظهر في أغلفة الروايات التي تشير إلى عوالم الشياطين، وتكرر فيها أشكال وطلاسم عوالم السحر ، مسح بسيط لأغلفة هذه الأعمال ينبئ عن فحواها ومنحاها.كما ويلجأ أصحابها للمغابرة على مستوى الكتابة والتقديم ففي رواية "ملائك نصيبين" لأحمد خالد مصطفى –ملا–تتداخل الحكايا ويستخدم الكاتب الرسومات والأشرطة المصورة لإشباع نهم القارئ.

كما يلجأ أصحاب هذه المؤلفات إلى مخاطبة القارئ واستفزازه وإغرائه منذ البداية.

ففي روايات أحمد خالد مصطفى تتكرر هذه الحيلة والمراوغة :يقول في مستهل روايته: أنتيخريستوس، التي باع منها ملايين النسخ:

**"تنبيه:**

جميع الشخصيات المذكورة في هذه الرواية هي شخصيات حقيقية، بإنسها وجنّها وشياطينها ...وأغلب الأحداث المحكية مبنية على أحداث ووقائع حقيقية مبينة " (مصطفى، دس ).

ويتكرر التنبيه نفسه ،في رواية "أرض السافلين "والتأكيد على قرب المتخيل من الواقع، ويؤكد المؤلف الخلفية الدينية لهذه المصادر ، على أنه يقين وحقيقة وواقع ،وطبعا هذه حيل تشعل في القارئ رغبة الاكتشاف والمواصلة :

" هذه الرواية فيها جمع غفير من الشخصيات الحقيقة ..يؤدون أدوارا مبنية على أحداث حقيقية،حدثت في حياتهم ...جميع المعلومات العلمية المذكورة في الرواية مأخوذة فقط من الأبحاث العلمية المعتمدة ...وجميع المعلومات

الدينية مأخوذة فقط من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة " (مصطفى، أرض السافلين، د س، صفحة 11).

وحينما يفرغ القارئ من قراءة سلسلة الإهداءات التي تشي بإنسانية الكاتب ،ثم يتوقف عند التنبيه الذي يفتح شهية القارئ. يبدأ الكاتب في مخاطبة قارئه مباشرة، مهيئا إياه لدخول عوالم حكيه، موسعا لدائرة التشويق، ومشرعا لأبواب الشغف ورغبة الكشف :

يقول أحمد خالد مصطفى في مستهل روايته أنتيخريستوس :

" لقد أصبحنا وحدنا أخيرا...أنا وأنت .

أخيرا انفردت بك

وصرت أمتلكك...وأمتلك عينيك..

في كل مرة تنظر فيها إلى كلماتي، وتقرأ فيها سطوري

ستكون هذه هي آخر رواية تقرأها لي في حياتك، فأنا على شفا حفرة من الموت ...

ولم يتبق لي في هذه الحياة إلا سويعات لا أدري عددها، ..لكنني أعرف أنها قليلة ...وبرغم ذلك فهي كافية لأسقيك ، بما أريد أن أسقيك إياه من الحديث" (مصطفى، أنيتخريستوس، دس ، صفحة 9).

ويتكرر الأسلوب نفسه، في روايته أرض السافلين:

" تحرر ..

تحرر من كل شيء وأنت آت

وانزع من روحك لباس كل شيء

تحلل من كل شيء يثقل هذه الروح..

الق بهمومك في هذه القمامة بجانبك

....

فإذا مللت مني أغلق دفتي كتابي هذا وانطلق بعيدا إلى صفحات أخرى وعوالم أخرى..." (مصطفى، أرض السافلين، د س، صفحة 11)

يمارس الكاتب خلوته مع قارئه ،يوحي له ، وكأنه ينومه مغناطيسيا ،ليربطه بعمله ومتابعة قراءته إلى الأخير . وما عساه أن يجني في الأخير غير التسلية ،ومتعة التخييل.

يستخدم الأسلوب نفسه عند روائيي العصر الحديث،الذين حرصوا على هدم الحجاب الحاجزبين المؤلف والكاتب، وراهنوا في مستهل العمل على استحواذ انتباهه وإعجابه، لم يعد الأثر الأدبي مرتبط بنهاية القراءة وبإعمال

الفكر ، وإنما صار مرتبطا بكل الزوايا ،حتى يغطي المؤلف على هشاشة الفكرة وضحالتها في أغلب الأحيان .مثل استهلال أحمد خالد في مجموعته "مطعم اللحوم البشرية وقصص أخرى الذي يقول فيه:

"ليس مهما أن أرحب بكم ...وليس ضروريا أن تستقبلوني بترحاب ...دعونا نتفق على ما سيحدث أنا هنا لأكتب ...وأنت هنا للقراءة . ليسمن الضروري أن يعجبكم ما سأقول ...وليس على أن أصدع رأسي بتحملكم ...لذا سنبتعد عن المجاملات ...أنا شيخ مسن من النوع الذي لا يروق لأحد ..وأنتم مجموعة شباب.فضوليين من النوع الذي لا يروق لي. (خالد، دس ، صفحة 5).

تعجّ الروايات والكتابات المعاصرة بهذه الأساليب المغايرة والمستفزة ، من كاتب يشتغل على قاعدة خالف تعرف، والغاية في الانتشار تبرر أساليب المراوغة في الجنس والقالب والقواعد، لتخرج لنا في النهاية أمشاج نصوص لا يمكننا تصنيفها ،من مثل عمل اكستاسي السالف الذكر، وهو مزيج من الخواطر والهواجس المكتوبة باللغتين الإنجليزية والعربية،يلفها اللون الأسود مبنى ومعنى.

ومن خلال العنوان الذي اختاره الكاتب المستوحى من عقار مخدر، يمكننا فهم فحوى هذا العمل، والشريحة التي ستهتم بفض عوالمه المظلمة .عنوان هذا المؤلف باللغة الإنجليزية أولا:

Ecstasy
65 days
Abdellah.AL_Amchan
In the midst if darkness
2018
I want to show the world how darkness can sometimes be so beautiful

أريد أن أظهر للعالم، كيف يمكن أن يكون الظلام في بعض الأحيان جميلا (العشمان، دس)

طبعا يتجنى هذا الكتاب على قوالب وأشكال الكتابة المتعارف عليها، لذلك ينبغي تسجيل هذا في خانة آليات التسليع على مستوى الشكل، فهذا الكاتب توسل بتقنيات العصر ليؤلف عمله، موجها إياه إلى القراء من مختلف أنحاء العالم– بما أنه اختار اللغة الإنجليزية – وأرفق ترجمتها باللغة العربية، كما أنه اعتمد على صور وأشكال تتراوح بين الأبيض والأسود ليزيد من دهشة المتلقي.

أما مضمون العمل فقد تركز على العوالم النفسية المظلمة، ونلاحظ من خلال هذا تركيزه على أمرين، العقار المخدر "اكستاسي" المعروف عند الشباب، عوالم الظلام والتيه والغرابة التي يخلقه متعاطي هذا العقار، وتيمة الظلام والسواد وعبدة الشياطين، كلها إشارات موحية تستقطب فئة معينة من القراء، وتترافق مع مستويات وعيهم وفهمهم لظلمات العوالم التي يشرحها هذا المؤلف..

وفي مجال آخر نجد كتابات أثير عبد الله النشمي، تستحوذ على قاعدة قرائية مغايرة، تستميل الجانب الرومنسي: إذ حققت هذه الروائية انتشارا جماهيريا واسعا بمبيعات كبيرة مثل رواية: أحببتك أكثر مما ينبغي. عتمة الذاكرة، ذات فقد، في ديسمبر تنتهي كل الأحلام. ومعها خولة حمدي بروايته: في قلبي أنثى عبرية. وتصطف معها كثير من الروائيات اللائي خلقن قاعدة قرائية واسعة استنادا على، قضايا الحب والمرأة والرومنسية...

يمكننا من خلال هذا أن نقول بأن التسليع ارتبط من خلال مضامينه، بالمواضيع الهامشية والمسكوت عنها،ووجد في أنماط الكتابة الهامشية أو ما يعرف بالأدب الهامشي، قالبه المميز ، وإذا ارتبطنا بمقوله هوراس حول المتعة والفائدة يمكننا تبويب متعة الجماهير في مستويين مهمين هي:

**المتعة الفكرية:** إذ ارتبط مفهوم المتعة الفكرية، عند الجماهير بتكريس أنواع معينة من الآداب على رأسها رواية الخيال العلمي، والرواية البوليسية.

**المتعة الجنسية:** وتدخل في نطاقها الروايات البورنوغرافية، وكل الأعمال التي تتوسل بالجنس وإثارة شهوة القارئ مناجل الانتشار واتساع المقروئية، وتدخل في نطاق التسليع تلك الأعمال المبتذلة التي توظف الجنس بعيدا عن رؤية إبداعية أو فكرية، قد تدخل كتابات الإيطالي البرتو مورافيا في نطاق هذه الآداب، ويمكننا إدراج قوائم من أسماء الروائيين العرب الذين سقطوا في فخ التسليع باستخدام حيل الإغراء الجنسي ب من أجل تمرير ايديولوجيات معينة دون الاحتكام لرؤية فكرية وجمالية معينة وعلى رأسهم أمين الزاوي وأحلام مستغانمي.

أما المستوى الثالث فهو المتعة المادية التي تضمنها دور النشر في تقريب الكتاب من جيب القارئ،سواء بطريقة طبع الكتب، التي تختار ورقا خفيفا وأحجاما صغيرة بأثمان بخسة تلائم جيوب القراء وسهلة الحمل وهو ما اصطلحت عليه دور النشر الفرنسية ب كتاب الجيب أو Livre de poche.أو باستخدام النشر الالكتروني كما رأينا في عمل اكستاسي الآنف الشرح.

وعلى هذا الأساس، يمكننا القول، أن قيمة العمل الأدبي تكمن في جماليته الفنية والشكلية، وفي عمق الأفكار وسموها ومدى استمرارها وانتقالها من جيل،إلى جيل، وهي تختلف قطعا عن الآداب الجماهيرية المصنعة التي تخضع لذوق العامة وأنصاف المثقفين، والتي قد تتلون بطابع النخبوية، لكنها تسقط قطعا في فخ التسليع.

## 6 . خاتمة:

وأخيرا يمكننا القول أن صناعة الأدب والاتجار به ظاهرة قديمة في كل آداب العالم ،اتخذت منحاها المؤسساتي في وقتنا الراهن، نتيجة هيمنة الرأسمالية الجديدة التي حولت الأدب إلى سلعة تباع، وتشترى، وعلى هذا الأساس توجب الانتباه إلى آلية التسليع في الأدب وتمييز تلك الحيل الظاهرة والكامنة في النصوص.

وتوصلنا إلى أنه هنالك آليات معينة لتسليع الأدب تتراوح بين الداخل والخارج ،ويعد التجريب أهم وسيلة، جسدت تلك الآليات، وشرعت لها أبواب النصوص، مما خلق أمشاجا من النصوص التي يصعب تبويبها وتجنيسها.

وتبعًا لهذه الفوضى التي خلقتها هذه الحيل الإبداعية، توجب إعادة قراءة المنجز النقدي بما يتواءم ومتغيرات الكتابة، وخلق خطاب نقدي يتلاءم مع هذه التحولات، ليضمن الحدود الفاصلة بين ألوان الكتابة، ويمنح الكتابات الراقية تميزها عن بقية الأعمال المبتذلة.

**مراجع البحث:**


1. ابن رشيق القيرواني. (1972). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد* . لبنان: دار الجيل.
2. ابن منظور. *لسان العرب*.
3. أحمد خالد مصطفى. (د س). *أرض السافلين*. (د ط) عصير الكتب للنشر والتوزيع.
4. أحمد خالد مصطفى. ( دس ). *أنيتخريستوس*. مصر: عصير الكتب للنشر والتوزيع.
5. أحمد خالد. (دس ). *مطعم اللحوم البشرية وقصص أخرى*.
6. روبير اسكاربيت. (1999). *سوسيولوجيا الأدب، تر: آمال أنطوان عرموني*. (ط3) بيروت–لبنان: دار عويدات للنشر والتوزيع والطباعة.
7. سعيد يقطين. (2002). *الأدب المؤسسة والسلطة: نحو ممارسة أدبية جديدة* . (ط1) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي الغربي.
8. عبد الله العشمان. (دس). *اكستاسي كتاب الكتروني*.
9. عبد المحسن طه بدر بدر. (د س). *تطور الرواية العربية الحديثة في مصر: 1870–1938* . (ط3) مصر: دار المعارف.
10. ياسر عبد العزيز الحوراني. (دس). *الشعر والتكسب: دراسة اقتصادية* . (ط1) الأردن : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
11. ياسمينة خصرا. (2011). *خرفان المولى، ترجمة: محمد ساري، دار الفارابي*. (ط1) لبنان–بيروت: دار الفارابي.
12. Angnot Marc) .http//doi.org/10.720.150035ar 1974 .(qu est ce que la paralitterature ?Eutde litteraire/7.
13. Bernard Mouralis .(1975) .Les contres_littéraires édition PUF .60 .France.